****

**التعليقات المنهجية**

**في الردّ على النصيحة الذهبية**

**أو**

**(بل هي الفضيحة الذهبية)**

#### الكاتب

#### فتحي عيساوي

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما؛ وبعد:

الحمد لله القائل: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)﴾ [ المطففين:1-6 ].

وقال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) ﴾ [الشعراء: 181-183].

# تمهيد

إنّ التاريخ الفكري مركب صعب، وطريق وعرة ملتوية، تتطلب همة عالية ودقة في التحقيق، وطول نفس في الغوص في جذوره، مع خلفية علمية قوية، مسلحين بالعدل والإنصاف والموضوعية، لأن المؤرخ باحث عن فكرة، والأفكار والنوايا محلها القلوب، وإدراك ما في القلوب يعز حتى في حياة أربابها، ولكن تلك المؤلفات والآثار الثابتة التي يتركها من نريد دراسته هي المعول عليه في البحث؛ توثيقا وتحقيقا، ابتغاء التوصل إلى مفاهيم وأحكام عادلة، عارية عن الأغراض، ولذا فإن مؤلفات كل من شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الذهبي هي مناط الأمل ومعقد الرجاء في هذا البحث الذي نعالجه.

فالباحث الذي يجعل مقصوده إدراك الحق؛ لابد له من جمع الأدلة وتقويمها، ومن ثم تمحيصها وأخيراً تأليفها؛ ليتم عرض الحقائق أولاً عرضاً صحيحاً في مدلولاتها وفي تأليفها، فيدرسها ويفسرها ويحللها على أسس علمية منهجية دقيقة؛ تلك الأسس الخاصة بدراسة السند والمتن للنص التاريخي، والخاصة بدراسة الوثائق شكلا ومضمونا؛ والموروثة عن علماء الحديث والتاريخ وعلماء الجرح والتعديل، حتى يتم التوصل حينئذٍ إلى استنتاج موضوعي وحكم عادل.

إنه مما لابد منه في هذا النوع من الدراسات مراعاة: متى كتبت الوثيقة؟، وهل ثمة ما يشير إلى كاتب الوثيقة؟، ومتى ظهرت الوثيقة ومن الذي أظهرها؟، وهل هناك ما يشير إلى الموضوعية من عدمها؟، وهل هناك تناقض في محتويات الوثيقة؟، وهل تتفق الوثيقة في معلوماتها مع وثائق أخرى صادقة؟، وهل تمت كتابة الوثيقة بخط صاحبها أم بخط شخص آخر؟، وهل النسخة مطابقة للأصل إن وجد؟، وهل تتحدث الوثيقة بلغة وثقافة صاحبها المعروفة عنه؟ أم تتحدث بمفاهيم ولغة مختلفة؟، وغير هذه الأسئلة كثير؛ مما يتوصل به إلى نقد النص التاريخي نقدا سليما من الداخل والخارج.

إن الأخبار هي محل الحكم بالصدق والكذب، والكذب له أسبابه ودوافعه ومقتضياته؛ من التعصب للمذهب، والطائفية، وقلة الباع في معرفة أحوال الرجال، وكذا غياب التقوى وطغيان النفوس والسير وراء المصالح والأغراض، وعدم فقه الملابسات والقرائن، أضف إليها بلادة المحقق وسذاجته إذا كان حاطب ليل؛ فلا تمييز ولا تمحيص، مع ما يوجد من الرغبة في الإكثار وقبول النفوس للوثائق والسير وراء الدعاوى والإشاعات من غير داع حتى ولا دليل.

(خصوصا وأن الميل الطبيعي للعقل الإنساني هو عدم الاحتياط والعمل في هذه المواد، التي لا غنى فيها عن الدقة المتناهية، على نحو مختلط مشوش، مما من شأنه أن يؤكد ضرورة التنبيه إلى مزالق الخطأ، صحيح أن الناس جميعا يقرون من حيث المبدأ بفائدة النقد، لكن هذه المسلمة من النادر أن نجد لها تطبيقا في الواقع العملي.. وحتى في أيامنا نجد أناسا مستنيرين يهملون وهم يستخدمون الوثائق لكتابة التاريخ، نقول إنهم يهملون اتخاذ الاحتياطات حتى الأولية منها ويسلمون من غير وعي بمبادئ زائفة، ذلك أن النقد مضاد للمسلك المعتاد، فالميل الطبيعي للإنسان هو إلى تصديق التوكيدات وترديدها حتى من ملاحظاته الخاصة، وفي الحياة ألا نسلم دون اكتراث وتحقق من أي نوع كان بالشائعات والمعلومات المجهولة المصدر الخالية من الضمان، وكل أنواع الوثائق الرديئة الضئيلة القيمة؟ ولابد أن يكون لدى المرء أسباب خاصة تحمله على أن يكلف نفسه عناء فحص وثيقة تتعلق بتاريخ الأمس وقيمتها، وإلا فإنها إن لم تكن غير محتملة إلى حد الفظاعة، وطالما لم ينكرها أحد، فإننا نبتلعها ونتمسك بها ونشيعها، مزوقين فيها عند اللزوم..إن التاريخ شأنه شأن أية دراسة أخرى ينطوي على أخطاء واقعية تنشأ عن نقص في الانتباه، لكنه أكثر تعرضا من غيره للأخطاء الناشئة عن اختلاط الذهن الذي يؤدي إلى القيام بتحليلات ناقصة وعقد استدلالات باطلة..) (نقلا من كتاب النقد التاريخي لعبد الرحمن بدوي).

وغير هذا كثير مما هو كامن في الصدور يمنع من ظهوره والتلفظ به الهوى والجهل، هذه وغيرها قد ذكر بعضها ابن خلدون في مقدمته، حيث قال رحمه الله تعالى:

(ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه؛ فمنها التشيعات للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله.

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح، ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب، ومنها توهم الصدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثقة بالناقلين، ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع، فينقلها المخبر كما رآها، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه، ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة، فالنفوس مولعة بحب الثناء، والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها... وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم).

هذا من حيث الجملة، أما ما يخص موضوع البحث، وهو كشف زيف تلك الرسالة المسماة بالنصيحة الذهبية، المنحولة على الإمام الذهبي، والتي مفادها توبيخ شيخ الإسلام ابن تيمية والطعن فيه، ومن ثم الطعن في منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة، فإنا نستعين بالله تعالى، ونقول:

# ماذا وراء النصيحة الذهبية

لما كان المناوئون لشيخ الإسلام ابن تيمية يرمون إلى ضربه بكل شيء وبأي شيء ولو كان واهيا؛ لا يثبت ولا يرقى أن يكون كلاما يحكى حتى، فضلا أن يكون كلاما في العلم، ولما استغلوا سذاجة بعض الناس وسخافة عقولهم لتأليبهم ضد شيخ الإسلام؛ وجدوا الطريق ممهدا للنيل منه ومن تلاميذه ومحبيه بالتلفيق والتزوير، بل والنيل من منهج أهل السنة والجماعة تبعا، فاصطنعوا وأظهروا تلك الرسالة المنحولة على الإمام الذهبي والمسماة بالنصيحة الذهبية.

لقد رام أعداء أهل السنة والجماعة في هذه النصيحة الذهبية إلى ضرب إمامين عظيمين؛ هما شيخ الإسلام ابن تيمية في ظاهرها، والإمام الذهبي من وراء السطور، ومع تفاهة هذه الوثيقة فإنها قد راجت في سوق التافهين، فأكثروا من التحقيقات والدراسات حولها في محاولة فاشلة لتثبيت نسبتها للذهبي، ومنهم من يستدل بها على أنها مسلمة ثابتة ليست محلا للشك، فلا تحتاج إلى إثبات أو توثيق.

فهذا وغيره من الطعن في شيخ الإسلام؛ ذلك الإمام الفذ والعالم البار، البارز في أصول الدين وعلومه، البالغ الذروة في علوم الإسلام، المجاهد الناقد لمختلف الملل والنحل والطرائق، الفاضح لانحرافات الصوفية وشرك القبورية ونحوهم، والكاشف لعورات أهل الأهواء والبدع من الجهمية والرافضة والمعتزلة وغيرهم، المجاهد ضد المغضوب عليهم والضالين؛ قد أحوجنا إلى فضح هذه النصيحة الذهبية، وبيان زيفها، وأنها منحولة ليست من كلام إمام مثل الذهبي، الذي خبر الرجال وأحوالهم، وصنف المؤلفات الكثيرة في التاريخ والتوثيق، وعلم الرجال والجرح والتعديل، سائرا على أصول أهل السنة والجماعة.

# خطة البحث

وخطة البحث تتمثل فيما يلي:

أولا: نقل كلام الإمام الذهبي في شيخ الإسلام، الثابت من خلال كتبه وكتب غيره من العلماء المعروفين المشهود لهم بالعلم والديانة.

ثانيا: نقد الرسالة الذهبية نقدا خارجيا.

ثالثا: نقد الرسالة الذهبية نقدا داخليا.

رابعا: تعليق عام وخلاصة للبحث.

# ترجمة ابن تيمية عند الذهبي

قال الإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ مترجما شيخه شيخ الإسلام:

(ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام:

ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقدم مع أهله سنة سبع، فسمع من ابن عبد الدائم وابن أبي اليسر والكمال بن عبد وابن الصيرفي وابن أبي الخير وخلق كثير، وعني بالحديث ونسخ الأجزاء ودار على الشيوخ وخرج وانتقى وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك.

وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاثمائة مجلد).

وأورد الشيخ ابن عبد الهادي في العقود الدرية كلام الإمام الذهبي في شيخ الإسلام فقال:

(وقال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: نشأ يعني ا لشيخ تقي الدين رحمه الله في تصون تام، وعفاف وتأله وتعبد، واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال ومات والده وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره وبعد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجمع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم، وكذا كان الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح.

وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا وقد ذكر نبذة من سيرته، أما مبدأ أمره ونشأته فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء، راشفا كؤوس الفهم، راتعا في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، خصوصا علم الكتاب العزيز والسنة النبوية ولوازمها، ولم يزل على ذلك خلفا صالحا سلفيا متألها عن الدنيا صينا تقيا، برا بأمه، ورعا عفيفا عابدا ناسكا صواما قواما، ذاكرا لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجاعا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة ولا تمل من الاشتغال ولا تكل من البحث، وقل أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله، مقصوده الكتاب والسنة).

وجاء أيضا في العقود الدرية:

(وقال الشيخ علم الدين رأيت في إجازة لابن الشهرزورى الموصلي خط الشيخ تقي الدين بن تيمية وقد كتب تحته الشيخ شمس الدين الذهبي:

هذا خط شيخنا الإمام شيخ الإسلام فرد الزمان بحر العلوم تقي الدين، مولده عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وقرأ القرآن والفقه وناظر واستدل وهو دون البلوغ وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف، وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه، وله من المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنتين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه، وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلا عن المذاهب الأربعة فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرا، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جدا، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب، وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت، وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل، وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس.

وقال الذهبي في موضع آخر وقد ذكر الشيخ رحمه الله كان آية في الذكاء وسرعة الإدراك، رأسا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحرا في النقليات، هو في زمانه فريد عصره علما وزهدا وشجاعة وسخاء وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وكثرة تصانيف.

وقرأ وحصل وبرع في الحديث والفقه وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة، وتقدم في علم التفسير والأصول وجميع علوم الإسلام أصولها وفروعها ودقها وجلها، سوى علم القراءات، فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا وسرد وأبلسوا واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلهم وتيسهم وهتك أستارهم وكشف عوارهم، وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة، وهو أعظم من أن يصفه كلمي أو ينبه على شأوه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدتين، وهو بشر من البشر له ذنوب فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته، فإنه كان رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأسا في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغة ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد ولا لحظتها من فقيه).

وجاء في ذيل تاريخ الإسلام للذهبي:

(وقال الذهبي أيضا: وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب، ونسخ عدة أجزاء وسنن أبي داود، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد وعلماء الأثر، مع التدين والنبالة مع الذكر والصيانة، ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده، وحججه والإجماع والاختلاف حتى كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد، وحق له ذلك؛ فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه، فإنني ما رأيت أحدا أسرع انتزاعا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، كأن الكتاب والسنة نصب عينية وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة، وعين مفتوحة، وإفحام للمخالف، وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير والتوسع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين، وأما أصول الديانة ومعرفتها، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة، فكان لا يشق في غباره ولا يلحق شأنه).

وأورد الإمام ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة ما قال الذهبي في حق شيخ الإسلام، فقال:

قال الذهبي في معجم شيوخه: أحمد بن عبد الحليم - وساق نسبه - الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي أبو العباس، تقي الدين، شيخنا وشيخ الإِسلام، وفريد العصر علماً ومعرفة، وشجاعة وذكاء، وتنويراً إلهياً، وكرماً ونصحاً للأمة، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه، وكتب وخرج، ونظر في الرجال والطبقات، وحصل ما لم يحصله غيره، برع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطر إلى مواقع الإِشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها.

وبرع في الحديث وحفظه، فقلَّ من يحفظ ما يحفظه من الحديث، معزواً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضاره له وقت إقامة لدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب، بل يقوم بما دليله عنده.

وأتقن العربية أصولاً وفروعاً، وتعليلاً واختلافاً، ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين، وَرَدَّ عليهم، وَنبَّه على خطئهم، وحذر منهم ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين.

وأُوذي في ذات اللّه من المخالفين، وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وَكَبَتَ أعداءه، وهدى به رجالاً من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالباً، وعلى طاعته، أحيى به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم بتثبيت أولى الأمر لما أقبل حزب التتار والبغي في خيلائهم، فظُنت بالله الظنون، وزلزل المؤمنون، واشْرَأَب النفاق وأبدى صفحته.

ومحاسنه كثيرة، وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت: إني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه، وقد قرأت بخط الشيخ العلامة شيخنا كمال الدين بن الزملكاني، ما كتبه سنة بضع وتسعين تحت اسم "ابن تيمية"؛ كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع: أنه لا يعرف غير ذاك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله.

وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا منه في مذهبهم أشياء، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع منه، ولا تكلم في علم من العلوم - سواء كان من علوم الشرع أو غيرها- إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها.

وقال الذهبي في معجمه المختصر: كان إماماً متبحراً في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإِدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفاً بفرط الشجاعة والكرم، فارغاً عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه.

قلت: وقد عرض عليه قضاء القضاة قبل التسعين، ومشيخة الشيوخ، فلم يقبل شيئاً من ذلك؛ قرأت ذلك بخطه.

قال الذهبي: ذكره أبو الفتح اليعمري الحافظ -يعني ابن سيد الناس- في جواب سؤالات أبي العباس بن الدمياطي الحافظ، فقال: ألْفَيتُه ممن أدرك عن العلوم حظاً، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه، ذو روايته، أو حاضر بالنحل والملل لم يرَ أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

وقد كتب الذهبي في تاريخه الكبير للشيخ ترجمة مطولة، وقال فيها: وله خبرة بالرجال، وجرحهم وتعديلهم، وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه، التي انفرد بها، فلا يبلغ أحد من العصر رتبته ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة، والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث.

وقال: ولما كان معتقلاً بالإِسكندرية: التمس منه صاحب سبتة أن يجيز لأولاده، فكتب لهم في ذلك نحواً من ستمائة سطر، منها سبعة أحاديث بأسانيدها، والكلام على صحتها ومعانيها، وبحث وعمل ما إذا نظر فيه المحدث خضع له من صناعة الحديث، وذكر أسانيده في عدة كتب، ونبَّه على العوالي، عمل ذلك كله من حفظه، من غير أن يكون عنده ثَبَت أو من يراجعه.

ولقد كان عجيباً في معرفة علم الحديث، فأما حفظه متون الصحاح وغالب متون السنن والمسند: فما رأيت من يُدانيه في ذلك أصلاً.

قال: وأما التفسير فمسلم إليه، وله من استحضار الآيات من القرآن -وقت إقامة الدليل بها على المسألة- قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحير فيه، ولفرط إمامته في التفسير، وعظم اطلاعه، يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويُوهي أقوالاً عديدة، وينصر قولاً واحداً، موافقاً لما دل عليه القرآن والحديث، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائلَ: نحواً من أربعة كراريس أو أزيد.

قلت: وقد كتب " الحموية " في قعدة واحدة، وهي أزيد من ذلك، وكتب في بعض الأحيان في اليوم ما يبيض منه مجلد.

وكان رحمه اللّه فريد دهره في فهم القرآن، ومعرفة حقائق الإيمان، وله يد طولى في الكلام على المعارف والأحوال، والتمييز بين صحيح ذلك وسقيمه، ومعوجه وقويمه.

وقد كتب ابن الزملكاني بخطه على كتاب " إبطال التحليل " للشيخ ترجمة الكتاب واسم الشيخ، وترجم له ترجمة عظيمة، وأثنى عليه ثناء عظيماً.

وكتب أيضاً تحت ذلك:

ماذا يقول الواصفون لــــه = وصفاته جلَّتْ عن الحصر

هو حجة لله قاهـــــــــــــــــــــــــــرة = هو بيننا أعجوبة الدهــــــــــــر

هو آية للخلق ظاهـــــرة = أنوارها أربت على الفجر

وللشيخ أثير الدين أبي حيان الأندلسي النحوي -لما دخل الشيخ مصر واجتمع به- ويقال: إن أبا حيان لم يقل أبياتاً خيراً منها ولا أفحل:

لما رأينا تقي الدين لاح لنـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــا = داعٍ إلى اللَّه فرداً مالـــــــــــــــــــــه وزر

على محياه من سيما الأولى صحبــــــــوا = خير البرية نورٌ دونه القمـــــــــــــــــــــــر

حَبْر تسربل منه دهره حِبَـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــراً = بحر تقاذفُ من أمواجه الـــــدرر

قام ابن تيمية في نصر شرعتنــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــا = مقام سيد تَيْمٍ إذْ عَصَتْ مُضر

فأظهر الدين إذْ آثاره درســــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــت = وأخمد الشرك إذ طارت له شرر

يا من تحدث عن علم الكتاب أصِــخْ = هذا الإِمام الذي قد كان ينتظر

وحكى الذهبي عن الشيخ: أن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد قال له - عند اجتماعه به وسماعه لكلامه-: ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك.

ومما وجد في كتاب كتبه العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ أبي عبد اللّه الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين المذكور: أما قول سيدي في الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول دائماً، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجلّ، مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة، ونصرة الحق، والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل من أزمان...

قال الذهبي: وغالب حطه على الفضلاء والمتزهدة فبحق، وفي بعضه هو مجتهد، ومذهبه توسعة العذر للخلق، ولا يكفر أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه.

قال: ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المرَّ الذي أدَّاه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السفن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكر، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمات الله.

فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة، فينجيه الله، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يُدْمنها بكيفية وجمعية، وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً، بلسانه وقلمه.

وأما شجاعته: فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال، ولقد أقامه الله تعالى في نوبة قازان (ملك من ملوك التتار قابله ابن تيمية وأنكر عليه وأمره بإطلاق أسرى المسلمين ففعل)، والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد وطلع، ودخل وخرج، واجتمع بالملك - يعني قازان- مرتين، وبقَطْلوشاه، وبُولاي، وكان قيجق يتعجب من إقدامه وجراءته على المغول.

وله حدة قوية تعتريه في البحث، حتى كأنه ليث حرِب، وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، وفيه قلة مداراة، وعدم تؤدة غالباً، والله يغفر له، وله إقدام وشهامة، وقوة نفس توقعه في أمور صعبة، فيدفع الله عنه.

وله نظم قليل وسط، ولم يتزوج، ولا تسرى، ولا له من المعلوم إلا شيء قليل وأخوه يقوم بمصالحه، ولا يطلب منهم غذاء ولا عشاء في غالب الوقت.

وما رأيت في العالم أكرم منه، ولا أفرغ منه عن الدينار والدرهم، لا يذكره، ولا أظنه يدور في ذهنه، وفيه مروءة، وقيام مع أصحابه، وسعي في مصالحهم، وهو فقير لا مال له، وملبوسه كآحاد الفقهاء: فَرَّجِيَّه، ودِلْق، وعمامة تكون قيمة ثلاثين درهماً ومداس ضعيف الثمن، وشعره مقصوص.

وهو رَبْع القامة، بعيد ما بين المنكبين، كأن عينيه لسانان ناطقان، ويصلي بالناس صلاة لا تكون أطول من ركوعها وسجود، وربما قام لمن يجيء من سفر أو غاب عنه، وإذا جاء فربما يقومون له، الكل عنده سواء، كأنه فارغ من هذه الرسوم، ولم ينحنِ لأحد قط، وإنما يسلم ويصافح ويبتسم، وقد يعظم جليسه مرة، ويهينه في المحاورة مرات.

قلت: وقد سافر الشيخ مرة على البريد إلى الديار المصرية يستنفر السلطان عند مجيء التتار سنة من السنين، وتلا عليهم آيات الجهاد، وقال: إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذبِّ عنهم، فإن الله تعالى يقيم لهمِ من ينصرهم غيركم، ويستبدل بكم سواكم، وتلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ [التوبة: 39].

وبلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد -وكان هو القاضي حينئذ- فاستحسن ذلك، وأعجبه هذا الاستنباط، وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام.

وأما مِحَنُ الشيخ: فكثيرة، وشرحها يطول جداً...).

قلت: هذا وقد رثى الإمام الحافظ الذهبي شيخ الإسلام ابن تيمية بأبيات فائقة الحسن والروعة، أوردها الإمام ناصر الدين الدمشقي في كتابه الرد الوافر، حيث قال: (وترجمة أبي عبد الله الذهبي للشيخ تقي الدين الملقب بشيخ الإسلام أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، من ذلك في قصيدته التي رثاه بها بعد موته، وهي ما أنبأنا شيخنا الحافظ الكبير أبو بكر محمد بن الإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد السعدي قال: أنشدنا الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن الذهبي لنفسه يرثي شيخ الإسلام أبا العباس ابن تيمية رحمة الله تعالى عليه:

يا موت خذ من أردت أو فـــــــــــدع = محوت رسم العلوم والـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــورع

أخذت شيخ الإسلام وانفصمت = عرى التقى واشتفى منه أولو البدع

غيبت بحرا مفسرا جبــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــلا = حبرا تقيا مجانب الشيـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــع

فإن يحدث فمسلم ثقــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة = وإن يناظر فصاحب اللمــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــع

وإن يخض نحو سيبويه يفـــــــــــــــــــــــــــــــــــه = بكل معنى من الفن مختـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــرع

وصار عالي الإسناد حافظـــــــــــــــــــــــه = كشعبة أو سعيد الضبعــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــي

والفقه فيه فكان مجتهـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــدا = وذا جهاد عار من الجــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــزع

وجوده الحاتمي مشتهــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــر = وزهده القادري في الطمـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــع

أسكنه الله في الجنـــــــــــــــــــــــــــــان ولا = زال عليا في أجمل الخلــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــع

مع مالك الإمام وأحمـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــد = والنعمان والشافعي والنخعـــــــــــــــــــــــــــــــــــــي

مضى ابن تيمية وموعـــــــــــــــــــــــــــــــــده = مع خصمه يوم نفخة الفـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــزع

# تعليق:

في هذه الورقات لما كان موضوعها بيان زيف الرسالة الذهبية المنحولة على الإمام الذهبي، أحببت في بادئ الأمر إيراد ترجمة شيخ الإسلام عند الذهبي؛ - ابتغاء مقارنتها بما نحل عن الإمام الذهبي في الفضيحة الذهبية -، وقد مرت أعلاه، وملخصها: أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛ هو رجل وهب حياته لله تعالى، فدعا إلى الله على بصيرة، شاهداً لله سبحانه وتعالى أنه لا إله إلا هو، قائماً بالقسط، مدافعا عن التوحيد الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ونابذا للشرك بأنواعه، متصديا لجميع البدع والأهواء التي ظهرت منذ مقتل الخليفة الراشد الثالث رضي الله عنه.

فشيخ الإسلام لم يألو جهدا في تفنيد أصول الفلاسفة وأذنابهم، والرافضة وأكاذيبهم، والباطنية وخبثهم ونفاقهم، والصوفية وعقائدهم الفاسدة وترهاتهم، والمتكلمين وخلفائهم وتأويلاتهم الباطلة، والمقلدين وعبادتهم لشيوخهم وتعصبهم لآرائهم، والنصارى وضلالهم، واليهود ومكرهم، فألف في كل ذلك مئات المجلدات والرسائل؛ إظهارا وإحقاقا للحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وإبطالا للباطل الذي جاء به أولئك.

كما لم يألو جهدا في الدفاع عن الأمة عندما داهمها خطر التتار، فجرد سيفه لقتالهم، وجمع الجموع لملاقاتهم ووحد صفوف المسلمين لحربهم، وخاض المعارك ونصره الله عليهم، وأعزه وجند المسلمين.

عاش رحمه الله تعالى عازفا عن الدنيا وملذاتها، بعيدا عن زخرفها وغرورها، متعبدا زاهدا، له أوراد في الذكر والعبادة يعجز عنها كبار العباد والزهاد، قد بلغ الذروة في كل شيء خاض فيه، جعله الله إماما وقدوة للناس من أهل الخير، ونموذجا للعلماء، وشوكا في حلوق أعداء السنة والملة من وقته إلى الآن، وكان من تلاميذه جهابذة الأمة في كل فرع من فروع العلم، فابن كثير إمام المؤرخين والمفسرين، والذهبي علم المحققين، والحافظ المزي إمام من أئمة النقل والرجال والحديث، وابن عبد الهادي علم التحقيق، وابن القيم إمام الأمة وفارسها، وروحاني الإسلام، وغير هؤلاء كثير.

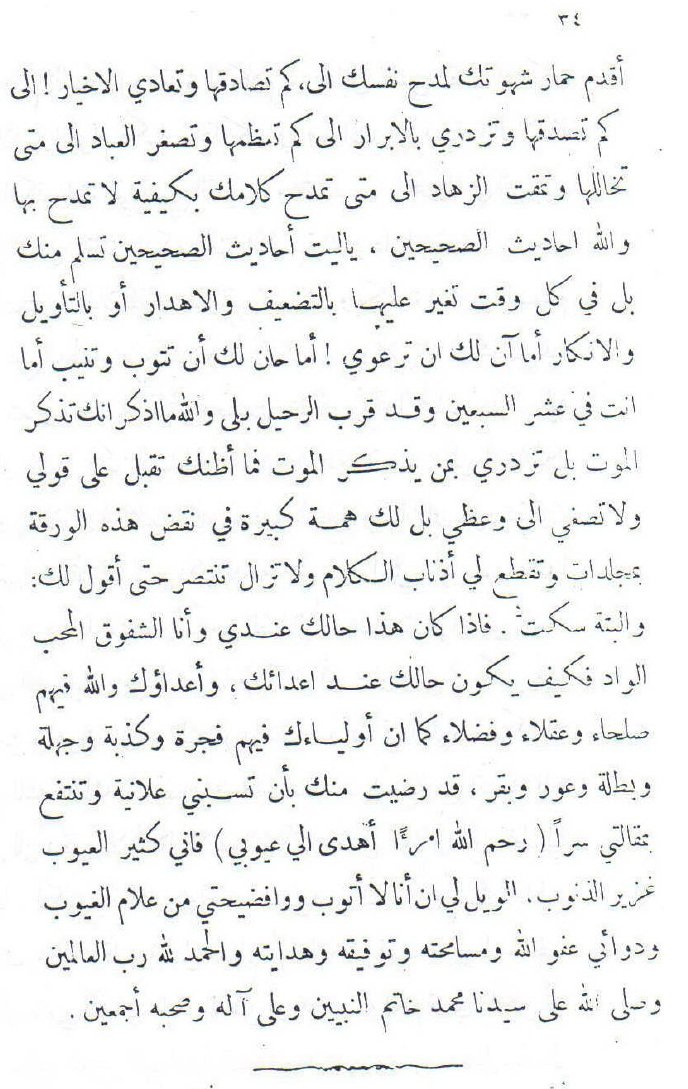
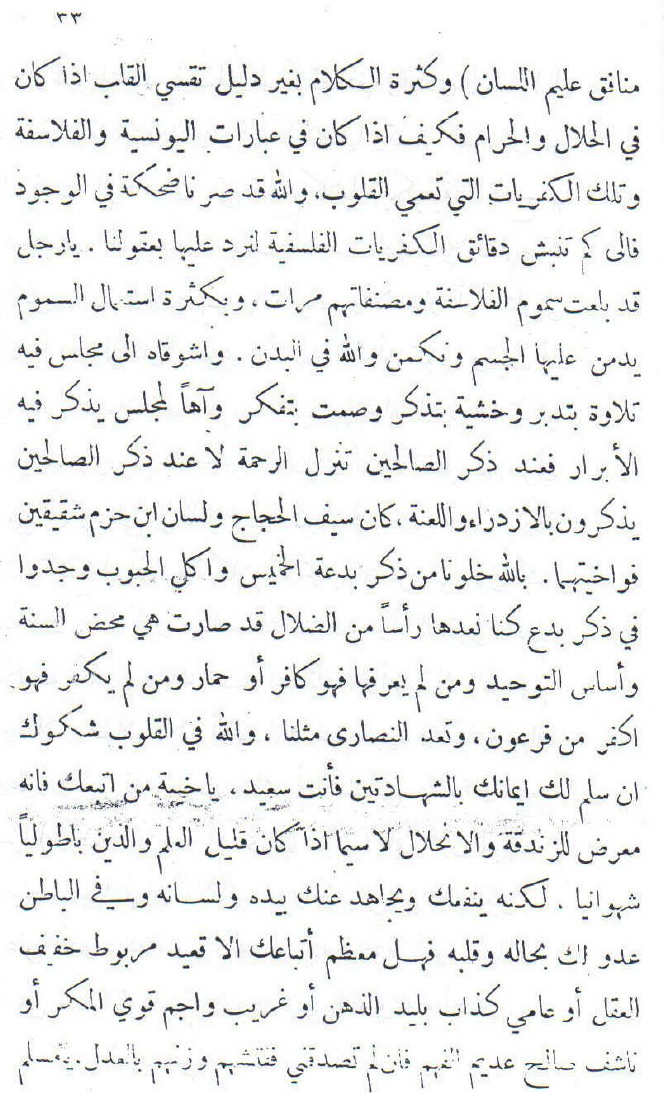
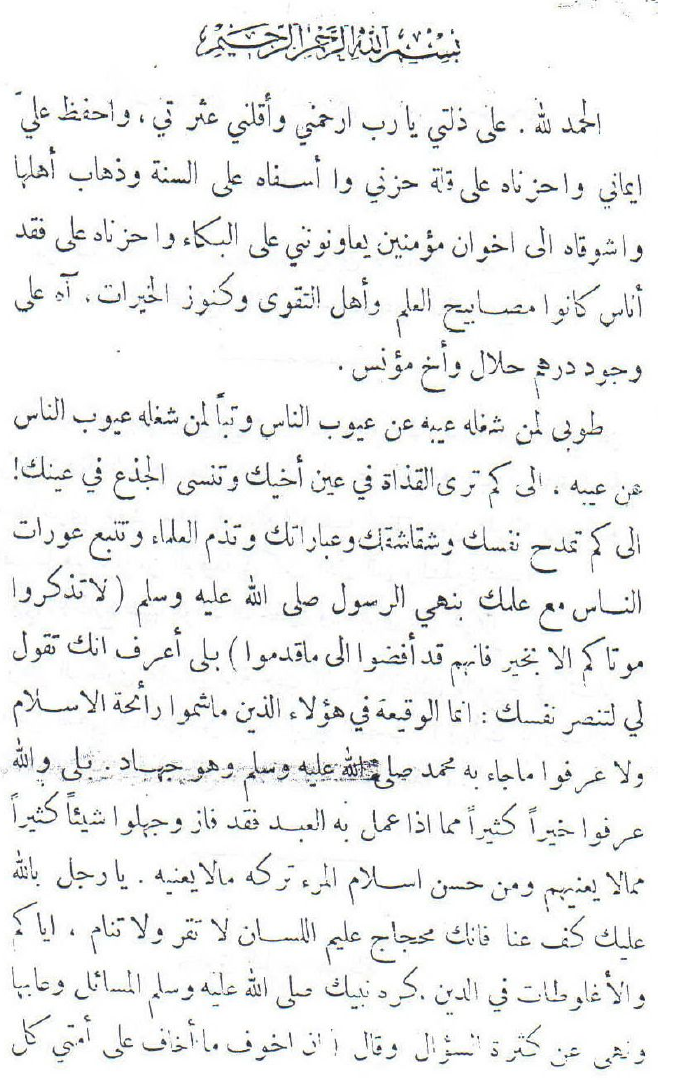
فإمام مثل ابن تيمية حباه الله تعالى بمزايا وجمعها فيه، في حين فرقها في غيره من علماء الأمة، فكثر حساده وشانئوه، في حياته وبعد مماته، فحبره سيل جرار، وكتبه سهام وأنوار تنسف كل زيف وبهتان وكل تضليل وهذيان، فعمد أولئك الحاقدون إلى كتبه يفتشون وينقبون، لعلهم يظفرون بشيء ينالون به منه، وهو غير معصوم، فلما عجزوا لجأوا إلى الافتراء والكذب، والتلفيق والتزوير، جاهدين في تنفير الأمة عن طريقه، وصرف علمائها عن الإفادة من كتبه، بكل الوسائل وإن كانت غير مشروعة، وغرضهم في ذلك أن يبنوا مجدا في الظلام على حساب نور الكتاب والسنة.

ولقد ادعى المناوئون لشيخ الإسلام عليه دعاوى طويلة عريضة، ليس لها من الحق نصيب، فلم يأتوا عليها بدليل ولا شبيهه، فكانت من قبيل التشنيعات والتشغيبات التي لا تنطلي إلى على من كان جاهلا بالعلم والدليل، أو حاقدا على أهل السنة عموما؛ وعلى الشيخين ابن تيمية وابن القيم خصوصا، لما لهما من الأثر البين والباقي إلى يومنا هذا في إظهار السنة وإعزاز أهلها، وفق منهجي علمي قائم على الاعتصام بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، مقدما على آراء الرجال ومعقولاتهم، وأذواقهم ومواجيدهم، وسياساتهم وفلسفاتهم.

ومن تلك الدعاوى الكثيرة؛ تلك الرسالة المنسوبة للذهبي، والمسماة بالنصيحة الذهبية، وبحسب زعم أولئك المناوئين لشيخ الإسلام؛ كتبها الإمام الذهبي لشيخه ابن تيمية، وقد زعم الحاقدون على شيخ الإسلام من صوفية ورافضة وغيرهم بأن هذه الرسالة صحيحة النسبة للإمام الذهبي، وأن نسبتها ثابتة عند السابقين من أهل العلم، وكذا عند المعاصرين، في حين لم تثبت إلا عند واحد أو اثنين من القدماء، وواحد أو اثنين من أهل هذا العصر، بينما جل أهل العلم من الأولين والآخرين يرون أنه لا وزن لها، وليس لها أي قيمة علمية، حتى أنهم أعرضوا عن ذكرها، وصنفوها في خانة التلفيق والتدليس.

# نص الرسالة الذهبية كما أورها زاهد الكوثري

# 



# النقد الخارجي للرسالة الذهبية

هذه الرسالة نورد عليها المؤاخذات التالية:

أولا: قد أخرج هذه الرسالة زاهد الكوثري، المعروف بعداوته لأهل السنة والجماعة من حيث الجملة، ولشيخ الإسلام تحديدا، فعلى كل من احتج بها أن يثبت نسبتها للإمام الذهبي، فإن البينة على المدعي، والكوثري متّهم في دينه وتقواه، (ومن هنا يقتضي الأمر اتخاذ الحيطة: فقبل استخدام وثيقة، يجب أن نعرف أولا هل نص هذه الوثيقة صحيح، أي يتفق قدر الإمكان مع نسخة المؤلف التي كتبها بخطه؟ فإن كان النص سقيما فيجب تصحيحه، ومن الخطر أن نعدل عن هذا المسلك، فإن استخدام نص سقيم، أي نص حرفه النقل، قد يفضي إلى أن ننسب إلى المؤلف ما هو في الحقيقة من تحريف الناسخ..وليست كل القواقع المطبعية وكل أخلاط النساخ غير مهمة أو مضحكة، فإن منها أنواعا خبيثة تخدع حتى القارئ الفطن)(النقد التاريخي للدكتور عبد الرحمن بدوي).

ثانيا: إن غالب تراجم ابن تيمية تستند إلى كلام الذهبي، وقد مدحه بكلمات عظام؛ لعله لم يقلها في غيره، وقد ذكرنا بعضها أعلاه، بل قد خصه بكتاب سماه الدرة اليتيمية، من أجل ذلك رام أعداء شيخ الإسلام إلى دس تلك الفضيحة الذهبية ونسبتها للإمام الذهبي، حتى يتم لهم مرادهم من نسف كل ثناء ورد عن الذهبي في حق ابن تيمية.

ثالثا: إن أعداء ابن تيمية هم أعداء أهل السنة والجماعة، والذهبي واحد من أعظم علماء الأمة، وهذه الفضيحة الذهبية هي في ظاهرها ضرب لابن تيمية، وفي باطنها ضرب للذهبي بإظهاره ساذجا ومتناقضا، حتى يتسنى لهم نسف تراجمه لأهل الأهواء والبدع، ومن ورائها ضرب لمنهج أهل السنة والجماعة؛ وتعظيم لطريقة الصوفية وبدعة الرافضة ومن على شاكلتهم.

رابعها: إن وثيقة النصيحة الذهبية غير مؤرخة، ولا وجود لاسم المرسل – وهو الذهبي- ولا لاسم المرسل إليه – وهو ابن تيمية -، كما لا وجود لتوقيع الذهبي أو ختمه، ولا هي بخط الذهبي، فكيف تنسب مثل هذه الوثيقة لإمام مثل الذهبي يعرف أصول الرسائل والمخاطبات، في حق إمام مثل ابن تيمية، رغم أنه لا ذكر لاسمه في الرسالة؛ ولا لما يشير إليه.

خامسا: أصل النصيحة الذهبية إن كان قد كتبها الإمام الذهبي؛ غير موجود، حتى يتسنى لنا مطابقتها مع الرسالة المكتوبة بخط الكوثري، فلا قيمة لنسخة هذا الأخير، ولا حجية فيها، والأولى أن تلحق بالوثائق المزورة والملفقة التي يستحق صاحبها العقاب.

سادسا: هناك تخبط واضح في تاريخ كتابة الرسالة، فمنهم من زعم أنها كتبت في أواخر عمر ابن تيمية (728 هجري)، وهذا ينقضه تراجم الذهبي المليحة لشيخ الإسلام بعد وفاته رحمه الله تعالى؛ مثل ترجمته له في المعجم المختص بالمحدثين الذي ألفه سنة 731 هجري؛ حيث روى عنه حديثا قال إنه سمعه منه سنة 695 هجري، ومنهم من قال إنها كتبت في أواخر عمر الذهبي (748 هجري)، ويجعلونها آخر ما استقر عليه الذهبي تجاه ابن تيمية، والحاصل عند أعداء شيخ الإسلام أن الذهبي امتدح ابن تيمية في بادئ الأمر، ثم عدل عن رأيه وابتعد عنه ووجه له النصيحة الذهبية، وهذا أمر في غاية الغرابة، وهو أشبه بصنيع المجانين، إذ كيف يوجه الذهبي رسالة لرجل مات قبل عشرين سنة؟ مما يجعلها لا فائدة فيها ولا طائل من ورائها، ثم إن النصيحة الذهبية غير مؤرخة؛ والكلام في "قبل وبعد" من الخرص والظن الذي لا يغني من الحق شيئا.

سابعا: لم تثبت الرسالة الذهبية بخط الذهبي، ولا ثبت طلبه نسخها من ابن قاضي شهبة، والنسخة التي يفترض أن تكون بخط ابن قاضي شهبة نقلها من خط البرهان بن جماعة، وأن هذا نقلها من خط العلائي، الذي يفترض أنه نقلها من خط الذهبي، والنسخة التي يتداولها الناس هي بخط الكوثري، وسواء كانت بخط ابن قاضي شهبة أو الكوثري؛ فكلاهما خصم لشيخ الإسلام، قد سلط لسانه وقلمه عليه، ومعلوم أن شهادة الخصم على خصمه لا تقبل شرعا، وغرضه منها ضرب ابن تيمية وكسب الذهبي في صفه، إلى جانب السخاوي الذي نال هو أيضا من شيخ الإسلام؛ من غير وجه حق.

ثامنا: ثم كيف توجد هذه النصيحة الذهبية ولم يستغلها في ذلك الوقت أعداء شيخ الإسلام ضده، ولا وجود للرد عليها عند أصحاب شيخ الإسلام الذين دافعوا وردوا عليه كل فرية رماه بها أعداؤه، فلا يوجد لها ذكر عند السبكي مثلا، والذي لو ظفر بها لكانت قرة عينه، ولا عند العلائي رحمه الله تعالى، هذا الأخير الذي تعقب الذهبي في ترجمته لتنكز حيث قال ابن حجر في الدرر الكامنة: (وتعقبه الحافظ صلاح الدين العلائي بحاشية قرأتها بخطه: لقد بالغ المصنف وتجاوز الحد في ترجمة تنكز وأين مثله؟ أعرض عن محاسنه الطافحة... ثم قال العلائي: ذنب تنكز أنه كان يحط كثيراً على ابن تيمية...قلت: قوله أن الذهبي أعرض عن محاسن تنكز ليس بصحيح فإنه ذكر منها الكثير إلا أنه بالغ في سرد معايبه).

قلت: فالعلائي لو كانت معه تلك النصيحة الذهبية، ألا يذكرها في هذا الموقف، وهو يلوم الذهبي على حطه من تنكز بسبب ابن تيمية، ثم كيف يعد الذهبي كون تنكز يحط من ابن تيمية سيئة وهو الذي كتب النصيحة الذهبية على حد زعم من زعم ذلك، أليس هذا تناقضا وغباء؛ يلزمه به العلائي وغيره، ثم إن ابن حجر لم ينف كون تنكز يحط من ابن تيمية من معايبه التي ذكرها الذهبي وبالغ على حد قوله، ودافع عن الذهبي بقوله إنه لم يعرض عن محاسن تنكز، ولو ثبتت النصيحة الذهبية عند ابن حجر لخطأ العلائي في تعقبه وقال له: إن تعقبك على الذهبي في التحامل على تنكز بسبب حطه على ابن تيمية ليس بصحيح لأن الذهبي نفسه يحط من ابن تيمية، ودليله في ذلك النصيحة الذهبية، وهذا رد وجيه يدفع به ابن حجر تعقب العلائي على الذهبي، والله أعلم.

# كلام السخاوي في حق شيخ الإسلام

تاسعا: أما عن قول السخاوي في كلام الإمام الذهبي في حق شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد رأيت له عقيدة مجيدة، ورسالة كتبها لابن تيمية، هي لدفع نسبته لمزيد تعصبه مفيدة، وقال مرة فيه مع حلفه بأنه "ما رمقت عينه أوسع منه علما، ولا أقوى ذكاء، مع الزهد في الملبس والمأكل والنساء، ومع القيام في الحق بكل ممكن": إنه تعب في وزنه وتفتيشه سنين متطاولة، فما وجد قد أخره بين المصريين والشاميين، ومقتته نفوسهم بسببه، وازدروا به، وكذبوه، بل كفروه، إلا الكبر والعجب والدعاوي، وفرط الغرام في رياسة المشيخة، والازدراء بالكبار، ومحبة الظهور، بحيث قاموا عليه ناس ليسوا بأورع منه ولا أعلم ولا أزهد، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم، ولكن ما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم، بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون) (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ 127).

# تعليق على قول السخاوي

قلت: في بادئ الأمر نورد على قول السخاوي التعليقات التالية، ثم نثني بمؤاخذات الشوكاني على السخاوي في تراجمه، فنقول:

أولا: كلام الذهبي في حق شيخ الإسلام والذي نقله السخاوي هو في كتاب بيان زغل العلم وليس في النصيحة الذهبية، وليس في كلام السخاوي ما يشير إلى النصيحة الذهبية لا من قريب ولا من بعيد، ولا نقل منها كلمة واحدة؛ مما يدل على أنه لم يقصد النصيحة الذهبية، بل الذي موه على الناس ولبس عليهم فأوهمهم أن السخاوي يقصد بكلامه النصيحة الذهبية هو زاهد الكوثري؛ ذلك المتعصب المتحامل، فإن كان لا يعلم فتلك مصيبة، وإن كان يعلم فالمصيبة أعظم.

ثانيا: قوله "رجل يقال له ابن تيمية" إما أنها خرجت مخرج الاحتقار والازدراء ونحن نجل الإمام الذهبي من هذا لما عرف به من التقوى والعلم، وإما أنها إشارة إلى أن الذهبي لم يعرف ابن تيمية حق المعرفة حين كتب بيان زغل العلم، ولما كان الذهبي قد جالس ابن تيمية وروى عنه سنة 695 هجري كما جاء في المعجم المختص بالمحدثين، فإن تاريخ كتابة زغل العلم كان قبل ذلك قطعا، وعليه فتراجم الذهبي الحسان لابن تيمية بعد وفاته تكون ناسخة لرأي الذهبي فيه في كتابه زغل العلم؛ على فرض أنه ذمه فيه، والله أعلم.

ثالثا: كون ابن تيمية كان له أعداء يبغضونه ويرونه في أبشع صورة؛ لا يعني أنه كان على باطل، بل الرجل إذا عودي على ما يعتقده من حق ويدعو إليه كان ذلك من محاسنه ونعم الله تعالى عليه؛ إذ سلك به مسلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الإيمان بالحق والدعوة إليه والصبر على أذى الناس فيه.

رابعا: وأنا أقول: بل في ثنايا هذه الكلمات مدح لشيخ الإسلام، ويزيد مدحا وثناء ما نقله السخاوي في الصفحة الموالية من كلام الذهبي في حق ابن تيمية، حيث قال: (..فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومجازات العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية، ولا والله تقاربها، وقد رأيت ما آل أمره إليه، من الحط عليه والهجر والتضليل والتكفير بحق وبباطل، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منورا مضيئا على محياه سيما السلف، ثم صار مظلما مكشوفا عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجالا أفاك كافرا عند أعدائه، ومبدعا فاضلا محققا بارعا عند طوائف من عقلاء الفضلاء، وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدين ومحيي السنة عند عموم عوام أصحابه).

قلت: وإن كان أيضا قد يفهم منه بعض الغمز؛ لكن التعبير والأسلوب يدلان على أن الذهبي لم يكن يعرف ابن تيمية حين كتب ما كتب في بيان زغل العلم الذي نقل منه السخاوي سواء اعتبر مدحا أو ذما، والظاهر أنه وصف حال يستند إلى أخبار؛ قبل المعرفة الباطنية بصاحبها، وإلا فتراجم ابن تيمية التي مرت عند الذهبي أعلاه، والتي يتضح فيها جليا أنه عرف ابن تيمية معرفة جيدة، فترجمه تلك التراجم الرائعة؛ وبعد وفاته، مما ينسخ كلامه في بيان زغل العلم، أو يوجهه نحو المدح بدل الذم.

# توجيه كلام الذهبي

ثم إنه قد يوجه كلام الذهبي القائل: (إنه تعب في وزنه وتفتيشه سنين متطاولة، فما وجد قد أخره بين المصريين والشاميين، ومقتته نفوسهم بسببه، وازدروا به، وكذبوه، بل كفروه، إلا الكبر والعجب والدعاوي، وفرط الغرام في رياسة المشيخة، والازدراء بالكبار، ومحبة الظهور) كالآتي:

لما قام المناوئون لشيخ الإسلام من المصريين والشاميين عليه، ذهب الإمام الذهبي ليفتش عن سبب قيامهم عليه وعن أخطائه التي جرتهم إلى عداوته؛ فما وجد شيئا يذكر عند شيخ الإسلام لكي يحسب عليه، مما جعله يخلص إلى أنهم تحاملوا عليه ومقتوه وازدروا به وكذبوه بل وكفروه؛ وانتقاداتهم لشيخ الإسلام مجرد دعاوى لا تثبت على ساق، مما سلطهم على الكبار؛ لا لشيء إلا أنه في نفوسهم كبر وعجب وفرط غرام في رياسة المشيخة ومحبة الظهور؛ وابن تيمية رحمه الله تعالى واحد من هؤلاء الكبار الذين عناهم الإمام الذهبي، وعليه فإن كلام الذهبي هو في مدح ابن تيمية وذم أعدائه لا العكس، والله أعلم.

ومما يقوي هذا التوجيه ما قاله الإمام الذهبي بعد ذلك: (فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبة الظهور نسأل الله تعالى المسامحة، فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه ولا أعلم ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم، ولكن ما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم، بل بذنوبه، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون فلا تكن في ريب من ذلك) (زغل العلم 38).

قلت: فالإمام الذهبي يقصد بأصحاب الدعاوى ومحبة الظهور أولئك الذين قاموا على شيخ الإسلام؛ الذين ليسوا بأورع منه ولا أعلم ولا أزهد منه، ومن قلة ورعهم أنهم يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم، ولا يفوتون شيئا لمن خالفهم إن لم يكن من أصحابهم وأصدقائهم، وكونهم قد سلطهم الله عليه فليس ذلك لمكانتهم عند الله تعالى، بل هي منحة لشيخ الإسلام في صورة محنة؛ يكفر الله تعالى بها عن ذنوب عبده الذي قام بالحق وانتصر له وصبر على من آذاه فيه، وما دفعه الله عن شيخ الإسلام وأتباعه أكثر، ثم يدعو الإمام الذهبي إلى العبرة بما جرى من الخزي والصغار لأعداء شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وهو بعض ما يستحقون، وعلى العبد أن لا يشك في كون الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا وينتقم ممن أذاهم، والله أعلم.

خامسا: لقد ألف الإمام الذهبي رسالة زغل العلم لمعالجة مشكلة خطيرة جدا، تلك التي تتمثل في فساد القصد من وراء طلب العلم، فتناول في هذه الرسالة أحوال المهتمين بالعلم باختلاف أنواعه، وبين رأيه فيهم، فتكلم عن الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحويين والوعاظ وغيرهم؛ من حيث الجملة، وبين أن كثيرا منهم حالهم مخالفة لسلوك الرعيل الأول من الصحابة والتابعين والأئمة الأوائل رحمهم الله تعالى، وأن منهم من اتخذ العلم وسيلة وغرضا لتحصيل ملذات الدنيا وحطامها الفاني وابتغاء المنزلة والجاه عند أهلها، وكان ذلك منه نصحا عاما، ولكن لما كانت النوايا محلها القلوب فالغلط في إدراكها وارد حتى على إمام كالذهبي، ولما كانت العلوم كثيرة وعميقة فقد تتعسر حتى على نابغة مثل الذهبي، وقد يوجد فيمن وجه لهم الذهبي كتابه زغل العلم من هو أتقى وأعلم من الإمام الذهبي، والمقصود أن شيخ الإسلام هو غير متهم في نواياه، وهو ممن تفوق في كل علم خاض فيه، بحيث أنه قد أقر له الموافق والمخالف؛ أنه فاق في علوم الدين أصوله وفروعه؛ وخصوصا في الملل والنحل أربابها وشيوخها، والإمام الذهبي رحمه الله تعالى ليس استثناء في هذا، بل هو مقر به، والغلط وارد عليه هو أيضا، فلا معصوم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

# قول الشوكاني في السخاوي

وإليك أخي القارئ ما قاله الإمام الشوكاني في البدر الطالع؛ فيما يخص الإمام السخاوي وتراجمه لأقرانه وأقران شيوخه: (والسخاوى رحمه الله وإن كان إماما غير مدفوع لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه كما يعرف ذلك من طالع كتابه الضوء اللامع، فإنه لا يقيم لهم وزنا، بل لا يسلم غالبهم من الحط منه عليه، وإنما يعظم شيوخه وتلامذته ومن لم يعرفه ممن مات في أول القرن التاسع قبل موته، أو من كان من غير مصره، أو يرجو خيره أو يخاف شره،... وأما ما نقله من أقوال ما ذكره من العلماء مما يؤذن بالحط على صاحب الترجمة فسبب ذلك دعواه الاجتهاد كما صرح به، ومازال هذا دأب الناس مع من بلغ إلى تلك الرتبة، ولكن قد عرفناك في ترجمة ابن تيمية أنها جرت عادة الله سبحانه كما يدل عليه الاستقراء برفع شان من عودي لسبب علمه وتصريحه بالحق وانتشار محاسنه بعد موته وارتفاع ذكره وانتفاع الناس بعلمه، وهكذا كان أمر صاحب الترجمة فان مؤلفاته انتشرت في الأقطار، وسارت بها الركبان إلى الأنجاد والأغوار، ورفع الله له من الذكر الحسن والثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه؛ والعاقبة للمتقين).

وقال الشوكاني معلقا على ترجمة السخاوي لمحمد البلقيني: (وقد ترجمه السخاوي ترجمة طويلة كلها ثلب وشتم، كعادته في أقرانه، ومن أعجب ما رأيته فيها من التعصب أنه قدح في مؤلفات المترجم له، ثم قال: إنه ما رآها، وهذا غريب، ولكنه قد أبان العلة في آخر الترجمة فقال: وبالجملة فهو ممن فيه رائحة الفن، بل هو من قدماء الأصحاب وأحد العشرة الذين ذكرهم شيخنا يعنى ابن حجر في وصيته، وإن فعل معي ما أرجو أن يجازى بمقصده عليه).

قلت: فالسخاوي كثير التحامل على كثير من العلماء والفضلاء، وكلامه فيهم – والذي غالبه حط وسباب وانتقاص- ينزل منزلة قدح الساخط، وأسبابه قد تكون مذهبية، أو عقائدية، أو دنيوية، أما عن نفسه وعن شيوخه وأصحابه وتلاميذه فإنه كثير الثناء والمدح، وهي من قبيل مدح المحب، وبالتالي فكلامه كثير منه يفتقر إلى الموضوعية والإنصاف، وأقواله محل بحث وتتبع، والله أعلم.

# ملاحظة

إنه لم يهمنا في هذه الرسالة من كتبها بقدر ما أهمنا براءة الذهبي منها، فإنه قد تعددت الآراء فيمن سطر هذه الفضيحة الذهبية، فمن قائل إنها لابن قاضي شهبة، كما جاء عن محمد بن إبراهيم الشيباني وعبد الله العثمان، ومن قائل إنه الصوفي ابن السراج كما جاء عن أبي الفضل القونوي، هذا الأخير ذكر أسباب اتهامه لابن السراج، وملخصها: كثرة إرساله الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية وتصريحه بذلك، وأن ابن السراج رجل متعصب من الرفاعية، رغب في منازلة ابن تيمية والغلبة عليه أو كفه عن الصوفية والفقراء، واستدل بمشابهة معاني الفضيحة الذهبية بكتاب تفاح الأرواح لابن السراج، هذا الكتاب الذي لم نجده، ولم يتسنى لنا الإطلاع عليه، والله أعلم بمن فضح نفسه عند ربه وإن لم نعلمه في هذه الدار.

# النقد الداخلي لمتن النصيحة الذهبية

ورد في النصيحة الذهبية المنسوبة زورا للإمام الذهبي كثير من الكلمات التي يترفع عن ذكرها أراذل الناس، فكيف تخرج من لسان الذهبي؛ ذلك الناقد العظيم، والجبل الشامخ في علم الجرح والتعديل، واللسان المعتدل في التراجم، فالكلام الذي ورد فيها يخالف كلامه في سائر كتبه أسلوبا ومعنى، فلسان الإمام أنظف، وقلبه أعلم وأتقى، ومنهاجه نصر السنة وقمع البدعة.

والكلام في محتوى الرسالة الذهبية كالآتي:

أما قوله: (واأسفاه على السنة وأهلها)؛ إن كان يقصد منه تراجع السنة في زمن شيخ الإسلام، فهي مخالفة للواقع والحقيقة الموجودة، والتي يعلمها القاصي والداني؛ فكيف بالذهبي، ذلك الإمام الناقد المؤرخ الذي درس أزمان ما قبل ابن تيمية وما عاصره، وما أتى بعده، فشيخ الإسلام وما قدمه من تراث من أعظم ما نصر الكتاب والسنة، ومن أعظم ما دافع عن أئمة الأمة وعلمائها، معتذرا لهم فيما أخطئوا فيه، وشاكرا ومعظما لهم فيما أصابوا فيه، والإمام الذهبي لم يخف عليه هذا الأمر، بل هو من أعلم الناس بذلك، فهو مدون في كتبه، وهو مقر بأن شيخ الإسلام قد رفع راية التوحيد فوق جميع الرايات، فلم يبق رحمه الله لا فلسفة ولا تصوفا ولا كلاما ولا تشيعا يخالف الحق الثابت بالكتاب والسنة والإجماع إلا ونسفه بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة، والمطلع على تراجم شيخ الإسلام عند العلماء المنصفين لا يجد إلا أن السنة قد استردت عافيتها المسلوبة أزمانا طوالا، بل هذا موجود في تراجم الذهبي نفسه.

وأما قوله: (واشوقاه إلى إخوان مؤمنين يعاونونني على البكاء، واحزناه على فقد أناس كانوا مصابيح العلم وأهل التقوى وكنوز الخيرات..)، فلقائل أن يقول: إن الذهبي يقصد بكلامه شيخ الإسلام، فهو حزين على فراقه، وقد أحس بفراغ كبير وغربة شديدة في ظل انتشار البدع والضلال بعد أن غادر من كان لها دائما بالمرصاد، وهذا يجعل من كلمته الأولى (واأسفاه على السنة وأهلها) أن السنة قد عزت في زمن شيخ الإسلام، والذهبي يتأسف على تراجعها بعد وفاته، وهو خائف من عدم وجود مثل ابن تيمية؛ مصباح من مصابيح العلم والهدى، وواحد من أعظم أهل التقوى، وكنز من كنوز الخيرات.

وأما قوله: (آه على وجود درهم حلال وأخ مؤنس)؛ هذه كلمة توحي بانتشار الكسب الحرام، وهذا حاصل في كثير من الأزمنة والأمكنة، ولا دخل لشيخ الإسلام به، وأما فقدان الأخ المؤنس فهو غير مسلم، فأمة الإسلام لم تكن يوما عقيما، بل كان من أصحاب ابن تيمية وتلاميذه خير مؤنس بعده، اللهم إلا أن يقول القائل مثل ما قال كثير ممن ترجموا لشيخ الإسلام: لم يرى مثله، ولا بلغ درجته أحد من الناس؛ لا في العلم ولا في الزهد ولا في التقوى، ولا برع أحد مثل براعته في شتى العلوم، إذ كانت كأنها مبسوطة بين عينيه، ينتقي منها ما يشاء، وهذا مما قاله الذهبي عنه في ترجمته، فيكون من الطبيعي أن يشعر مثل الذهبي بالوحدة والوحشة عند فقدان مثل ابن تيمية.

وأما قوله: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتبا لمن شغله عيوب الناس عن عيبه، إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك..)؛ وهذا يجاب عنه بأن نقول:

إن شيخ الإسلام من أعظم من دعا إلى كف الأذى عن الناس، وله الكلمات الطوال في تزكية النفوس ومحاسبتها، وفي تقويم اللسان والنهي عن تتبع العثرات، ولكن الكلام في الناس له أصول وضوابط، فأصله محرم، ولكن يباح في مواضع، قد علمها وضبطها ابن تيمية وكثير من علماء الأمة، خصوصا أئمة الجرح والتعديل، فدين الله لا تبقى معه حرمة لمبتدع يدعو إلى بدعته، ولا لكذاب يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضع عليه الحديث، ولا لمن قل ضبطه أو حفظه، مع الالتزام بما يفي بالمقصود، ونحو هذه الضوابط المعروفة عند أهل العلم، والمدونة في كتب الحديث والجرح والتعديل، ومثل هذا لا يخفى على مثل الإمام الذهبي، اللهم إلا أن نقول إن هذا الكلام إن ثبت عن الذهبي فهو موجه لمن انتقص شيخ الإسلام ونال منه لا لشيخ الإسلام، فيكون حاصله الدفاع عن ابن تيمية رحمه الله تعالى وكف الأذى عنه، والدعوة إلى تأليف القلوب وجمع الكلمة.

ومثل الذهبي لا ينهى شيخ الإسلام عن الكلام في أهل البدع والباطل من الجهمية والفلاسفة والرافضة، وإلا كان هذا الكلام مردودا على الذهبي، وتهمة له في دينه، والذهبي أجل من أن يقصد الدفاع عن أهل البدع والأهواء والوقوف معهم ضد ابن تيمية، بل كتبه ملآ بالحط من البدع وأهلها.

وأما قوله: ( إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس، مع علمك بنهي الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا"، بلى أعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك: إنما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شموا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو جهاد، بلى والله عرفوا خيرا كثيرا مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجهلوا شيئا كثيرا مما لا يعنيهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، والجواب على هذا من وجوه:

أولا: شيخ الإسلام أعلم وأجل وأتقى من أن يمتدح نفسه عن عجب، فهو معروف عند العامة والخاصة بالزهد والورع والتواضع، حتى إن الإمام الذهبي الذي ينسبون إليه هذا الهراء يقول عن ابن تيمية - صدقا لا كذبا وحقا ثابتا لا ملفقا -: (وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه في العلم)، وقال أيضا: (نشأ في تصون تام، وعفاف، وتأله، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خلفا صالحا برا بوالديه، تقيا، ورعا، عابدا ناسكا، صواما قواما، ذاكرا الله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر).

ثانيا: إن عدم تتبع عورات الناس منهي عنه، وذكره بسوء من الغيبة المحرمة، وهذا أمر لا يخفى على شيخ الإسلام، بل هو من أعظم من تكلم في هذا الموضوع، وكما ذكرنا فإنه من أجل الدفاع عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتصفيتها مما نسب إليه أو كذب عنه من أعظم واجبات الدين التي حفظ بها الله تعالى دينه، وعليه فالكلام فيمن أخطأ في دين الله تعالى بعلم وعدل؛ سواء أخطأ عمدا أم سهوا، فإنه من أعظم الجهاد في سبيل الله تعالى، بإقرار أئمة الجرح والتعديل، ومنهم الذهبي رحمه الله تعالى، ثم إن المنصف والمخلص ممن تكلم فيه لا يغضب لذلك، وهذا الظن بأئمة الإسلام الأحياء منهم والأموات، أما من غاظه ذلك سواء تكلم فيه هو أو تكلم في غيره، وكان غرض الكلام فيه دينيا، فهذا قدح فيه لا فيمن تكلم، بل وربما يكون الغرض دنيويا لكنه مشروع، كمسألة الخطبة والتخاصم عند القاضي ونحوها.

ثالثا: إن ما افترضه صاحب النصيحة الذهبية من أن شيخ الإسلام يدافع عن نفسه بقوله: (إنما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شموا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو جهاد) لمن أعظم الرمي بالتكفير، فإن وراء هذه الكلمات نسبة شيخ الإسلام إلى تكفير المخالفين له، ونحن نقول إنه من أعظم من أنصف خصومه، فقد رد على أقوالهم وفندها تفنيدا لا نظير له، مستدلا بحجج من الكتاب والسنة والإجماع، وعندما رام إلى الكلام في أشخاصهم بين أن التكفير أمر خطير، وهو لا يثبت في حق الشخص إلا بعد بلاغ الحجة الرسالية التي يكفر من خالفها؛ وثبوت الشروط وانتفاء الموانع، وإلا فلا يجوز تكفير من قال كلمة الكفر متأولا أو جاهلا، كما بين أنه لا يجوز نسبة لازم القول إلى القائل، ولا تكفيره ولا تبديعه بذلك، وكتب شيخ الإسلام مشحونة بهذه القاعدة، والمسماة بقاعدة الأسماء والأحكام، ثم إنه لم يبخس أحدا من خصومه ما معه من حق ولا جهوده في الدفاع عن الدين، مثل كلامه عن الأشاعرة ومدح جهودهم ضد الفلاسفة والرافضة ونحوهم من الزنادقة.

هذا عن خصومه ممن بقي في دائرة الإسلام، وإلا فمنهم من خلع ربقة الإسلام مثل الحلاج وابن عربي والقونوي والتلمساني؛ ونحوهم ممن كفرهم سائر أئمة الإسلام، وليس ابن تيمية وحده، فإذا كان مراد صاحب النصيحة الذهبية هؤلاء، فهو إما جاهل وإما ضال، ومرده إلى الله هو أعلم به وبمن اتقى، وإن كان مراده خصوم شيخ الإسلام المسلمين فجوابه ما تقدم، ولا يقدح فيه الكلام فيهم وفي مقالاتهم، وإنما الذم على من دافع عنهم، ورضي ببدعهم وضلالاتهم في دين الله تعالى.

رابعا: إن شيخ الإسلام قد عرف عنه أنه يحب الخير للناس، ولم يكن عونا للشيطان عليهم، فإنه كان يعلم ويناظر، وغرضه بيان الحق، ومن ثم رجوع الخصم وتوبته، فقد تحلى رحمه الله تعالى بالعلم والحلم والرفق، وتجمل بالخلق والكرم، وتسلح بالصبر، قائما بحقوق الله تعالى، منافحا عنها، متساهلا ومتسامحا في حق نفسه إذا ما نيل منها.

خامسا: إن الدفاع عن السنة ضد من انتقصها أو طعن فيها؛ سواء قصد أو لم يقصد، هو من الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو مما يعني كل من اجتمع فيه العلم والقدرة، وهما شرطان لا بد منهما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من حسن إسلامه، بل الإعراض عمن أفسد في دين الله تعالى، وترك بيان غلطه وعدم الرد عليه هو من سمات الجاهل أو المخذول، الذين توعدهم الله تعالى باستبدالهم بقوم يحبهم ويحبونه؛ يجاهدون في الله ولا يخافون لومة لائم.

سادسا: من هم خصوم ابن تيمية الذين (عرفوا خيرا كثيرا مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجهلوا شيئا كثيرا مما لا يعنيهم)، أهم الفلاسفة؟ كلا فإن الفلسفة من أولها إلى آخرها جهل وضلال، وباب للزندقة والإلحاد، أم هم أصحاب الحلول والإتحاد؛ أصحاب وحدة الوجود والضلالات؟ أم هم الجهمية الزنادقة؟ أم هم الخوارج كلاب النار؟ أم هم الرافضة أكذب خلق الله وأفجرهم وأعظمهم كيدا للإسلام والمسلمين؟ أم هم المعتزلة نفاة الصفات الذين تجرئوا على الله تعالى في القدر؟ أم هم الأشاعرة الذين تاهوا بين المعتزلة والفلاسفة؟ أم هم الصوفية أصحاب الطرائق والبوائق؟ أم هم القبورية عباد القبو والمشاهد؟.

إن كل من انتصر لهؤلاء، ولا يهم ضد من؛ ابن تيمية أو غيره، لا يكون إلا جاهلا أو ضالا أو منافقا، ونحن نجل الإمام الذهبي من أن يكون كذلك.

وأما قوله: (يا رجل بالله عليك كف عنا، فإنك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام، إياكم والأغلوطات في الدين، كره نبيك صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال وقال: أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)، والجواب عنه من وجوه:

أولا: قوله (كف عنا) يوهم أن شيخ تعرض للذهبي بالنقد وربما بالتجريح والانتقاص، ولكن الواقع لم يثبت شيئا من ذلك، بل الذهبي هو الذي تعرض لترجمة شيخه ابن تيمية ولكن ليس كما يدعيه المناوئون لشيخ الإسلام، وإنما ترجم له بالمدح والثناء، ووصفه بمحاسن يتمناها محبوه، فضلا عن أعدائه ومناوئوه.

ثانيا: من اطلع على تراجم ابن تيمية عند الذهبي يقطع جزما أن يكون الذهبي وصفه بالنفاق، فالمعروف عن الذهبي إمام الجرح والتعديل أنه متخلق بمكارم الأخلاق، متبحر في العلم، وخاصة علم الرجال، قد ترجم لشيخه بما لم يترجم لغيره مثله، فمن نسب هذا الكلام للذهبي فهو يطعن فيه وفي علمه وفي كتبه التي ملأت الدنيا في تراجم الرجال، وإنزال أصحاب الأهواء والبدع من الصوفية والرافضة منازلهم التي يستحقون عدلا وإنصافا.

ثالثا: لقد كان شيخ الإسلام آية في العلم والاستدلال على الحق من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد عرف عنه ذلك في دروسه ومناظراته، لكنه لم يخرج عن حدود الأدب والأخلاق في معاملته للمخالف، ولم يعرف عنه الكبر أو الاحتقار والازدراء للغير في الحوار ولا خارجه، ولا العجب بالنفس، ولا الانتصار لها ولو بالباطل، فإنه رحمه الله علا شأنه في الزهد والتقوى، وطار في الآفاق، حتى أقر به الأعداء، ولكن لحاجة في نفوس مناوئيه يختلقون الكذب ويزورون الوثائق لإحداث شرخ بينه وبين محبيه، ولو فرضنا أن هذه الكلمات خرجت من في الذهبي فلقائل أن يقول: ليست موجهة لابن تيمية، وعلى المثبت الدليل.

وأما قوله: (وكثرة الكلام بغير دليل تقسي القلب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في عبارات اليونسية والفلاسفة وتلك الكفريات التي تعمي القلوب)، فجوابه كالتالي:

أولا: إن هذا الكلام لا يقال لابن تيمية لما عرف عنه من تعظيم الدليل من الكتاب والسنة والإجماع، فهو لا ينفك يتكلم به في مؤلفاته ومناظراته، وهاهي كتبه فليخرج لنا مناوئوه أقواله في الحلال والحرام ثم ليثبتوا أنه تكلم من غير دليل، ثم إن ردوده على من عظم العقل على حساب النقل لخير شاهد على كذبهم، فهذا "درء تعارض العقل والنقل" لم يؤلف مثله في الدنيا، من اطلع عليه يلمس حقيقة تعظيم شيخ الإسلام للقرآن والسنة، ورفعه لمقام النبوة، ويرى عيانا كذب من طعن فيه.

ثانيا: إن كل من رأى ابن تيمية أو اطلع على كتبه وقرأ تراجمه عند أهل العدل والإنصاف يعلم أن شيخ الإسلام كثير العبادة والابتهال والدعاء بالساعات الطوال، مما لا يقدر عليه كبار العباد والصالحين بشهادتهم على أنفسهم، فلا وجه لاتهامه بقسوة القلب وعمايته، فإنها حال العصاة والمبتدعة الذين تمرسوا في بدعهم ومعاصيهم، وتمردوا على الحق، وشردوا شرود البعير.

وأما قوله: (والله قد صرنا ضحكة في الوجود، فإلى كم ننبش دقائق الكفريات الفلسفية لنرد عليها بعقولنا، يا رجل قد بلعت سموم الفلاسفة ومصنفاتهم مرات، وبكثرة استعمال السموم يدمن عليها الجسم وتكمن والله في البدن)، وجوابه كالآتي:

أولا: إن شيخ الإسلام قد نسف عقول الفلاسفة وفند أصولهم كما لم يفعل أحد مثله، فقد استوعب مقولاتهم ورد عليها بالدليل من الكتاب والسنة، وألزمهم بالعقل الصريح الموافق للنقل الصحيح، بخلاف غيره ممن عظم عقلا مبتدعا فأفسد أكثر مما أصلح.

ثانيا: ما الضير في استعمال العقل في المناظرة والرد على المخالف؛ إذا لم يخالف آية أو حديثا صحيحا، فالعقل الصريح ليس عدوا للنقل الصحيح إلا عند من ليس له عقل، أو كبل عقله بأغلال الجهل والهوى والتعصب؛ مثل الصوفية والرافضة ونحوهم ممن طار عقله ولم يعد.

ثالثا: إن شيخ الإسلام لم يتأثر بل كان مؤثرا، فهو عاش سنيا ومات سنيا، متشبعا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يدعو إليهما، ويجاهد عنهما؛ يعتقد أن الفلسفة كفر بعيد وضلال سحيق، اجتهد في نسفها وحماية الناس منها، وقد توفي رحمه الله تعالى وهو يقرأ القرآن، بخلاف غيره، الذين ندموا على ما عاشوا عليه وخاضوا فيه وعظموه من الكلام والفلسفة وتابوا إلى الله تعالى، كالرازي والجويني والغزالي ونحوهم، وأيضا بخلاف غيره ممن بلع الفلسفة وبلعته، ولم يؤثر أنه تاب منها كابن سينا وابن عربي وابن سبعين ونحوهم.

# كلام أبي زهرة في اشتغال شيخ الإسلام بالفلسفة

رابعا: هنا أحببنا إيراد ما ذكره أبو زهرة - على أشعريته - فيما يخص اشتغال شيخ الإسلام ابن تيمية بالفلسفة، حيث قال:

(درس ابن تيمية الفلسفة وعرفها، ولكنه درسها ليهدمها، وهو قد رآها داء قد أصاب فكر المسلمين، فجعل منهم المتكلمين والمتفلسفين، وأنها سرت إلى العقل الإسلامي فسيطرت على مساربه، ويروي أنه قبل أن يخوض في بيان العقيدة الإسلامية وموافقتها لصريح المعقول لابد من إبعاد العناصر الفلسفية التي هي أخيلة وأوهام، كما يبعد عن الجسم الإنساني الأخلاط الضارة لتتم سلامته، فيقول في ذلك: "ولما كان بيان مراد الرسول صلي الله عليه وسلم في هذه الأبواب لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي وامتناع تقديم ذلك على نصوص الأنبياء بينا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدوا به الناس عن سبيل الله وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر، إذ كان أي دليل أقيم علي بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قدر أن المعارض العقلي القاطع ناقضه، بل يصير ذلك قدحا في الرسول وقدحا فيمن استدل بكلامه، وصار هذا بمنزلة المريض الذي به أخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء، فإن الغذاء لا ينفعه مع وجود الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع علي نفي الصفات أو بعضها أو نفي عموم خلقه لكل شيء أو نفي أمره ونهيه أو امتناع المعاد أو غير ذلك لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة إلا مع بيان فساد ذلك المعارض، وفساد ذلك المعارض قد يعلم جملة وتفصيلا.."((نقلا من كلام ابن تيمية في الدرء)).

وأما قوله: (واشوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبر، وخشية بتذكر، وصمت بتفكر، واها لمجلس يذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، لا عند ذكر الصالحين يذكرون بالازدراء واللعنة)، وجوابه كالآتي:

أولا: على ضوء ما تقدم فإن شيخ الإسلام ليس معنيا بهذه الكلمات، وإنما لما افتقده المسلمون أحسوا بخطر الفلسفة، إذ لم يجدوا من يصدها عنهم، فانتشر سمها في الناس وعم بلاؤها، فربما حزن صاحب هذه الكلمات على فراق شيخ الإسلام، وخرجت من فيه مخرج الحزن والأسف على فقدان مجالس العلم والجهاد وانتشار مجالس الحضرة والشطحات أو التكفير واللعنات لخير الخلق والبريات.

ثانيا: وإذا كان المقصود هو شيخ الإسلام، فأين الازدراء واللعن في كتبه، وأين ذلك في كتب من أخذ العلم عنه وتتلمذ على يديه مثل ابن القيم وابن رجب ونحوهم؛ رحمة الله تعالى عليهم، وأين ذلك في كتب من ترجم له من أهل العلم الذين هم أهله، بل أين ذلك في كتب الإمام الذهبي الذي يزعمون أنه صاحب الفضيحة الذهبية؟.

وأما قوله: (كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما، بالله خلونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب، وجدوا في ذكر بدع كنا نعدها رأسا في الضلال قد صارت محض السنة وأساس التوحيد، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفر فهو أكفر من فرعون)، وجوابه كالآتي:

أولا: إن الحجاج هو مبير هذه الأمة، أوغل في الظلم والقتل، وإن ابن حزم كان ذا لسان حاد، وصاحب الفضيحة الذهبية يجعل من ابن تيمية حجاجا بلسان ابن حزم، وهذا هو الإفك بعينه، فلقد قابل أذية مناوئيه له بالحلم والعفو عند المقدرة، وأحلهم من جميع مظالمه، كما شهد له خصمه ابن مخلوف حيث قال: (ما رأينا أتقى من ابن تيمية، سعينا في ذمه، فلما قدر علينا عفا عنا).

ثانيا: إن البدع كما هو معروف متفاوتة في الخطورة، فمنها البدع المغلظة ومنها الخفيفة، لكن بعضها أغلظ من بعض، وبعضها أخطر من بعض، وهذه النسب محل اجتهاد، وقد يرى العالم خطر هذه البدعة أعظم من الأخرى، وقد يرى الآخر الأخرى أعظم، فلا يضلل واحد منهما لرأي رآه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه ليس ابن تيمية ولا الذهبي من يرى بدعة الخميس أعظم وأخطر من بدعة الجهمية أو الرافضة أو القبورية على سبيل المثال، وهذا مما يجعل هذه الفضيحة الذهبية مفتراة على الذهبي.

وأما قوله: (ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار)، وقوله: (..يا خيبة من اتبعك، فإنه معرض للزندقة والانحلال، لاسيما إذا كان قليل العلم والدين باطوليا شهوانيا)، وقوله: (..فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل، أو عامي بليد الذهن، أو غريب واجم قوي المكر، أو ناشف صالح عديم الفهم)، والجواب عنه كالتالي:

أولا: إنه من المعلوم أنه من رام إلى الطعن في شخص فإنه يتسنى له ذلك إذا طعن في أصحابه وتلاميذه، وهذا ما فعلته الرافضة مع النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه، وليس ببعيد أن يصنع نفس الشيء مع ابن تيمية وأصحابه، فسنن الكون ثابتة والتاريخ يعيد نفسه.

ثانيا: هل يعقل من الإمام الذهبي هذه الكلمات في حق شيخ الإسلام وأصحابه، هذا وهو واحد منهم، بل ما هذه الكلمات إلا بضاعة جاهل صاحب هوى، بل ومغفل ليس له عقل ولا دين، وليست يقينا كلمات ذلك الإمام العلامة التقي الورع، النابغة في النقد والتتبع.

وأما قوله: (يا مسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار؟ إلى كم تصدقها وتزدري بالأبرار؟ إلى كم تعظمها وتصغر العباد؟ إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح بها والله أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك، بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو بالتأويل والإنكار)، وجوابه كالآتي:

أولا: إن شيخ الإسلام ليس ممن أعجب بنفسه، ولا هو ممن طعن في الأخيار، بل لمعرفته بالحق عاش رحيما بالخلق، يذكر الصالحين بالخير ويترحم عليهم، ويستغفر للمخطئين ويرجو لهم السلامة، ويتجاوز عمن آذاه، ويعفو عنهم.

ثانيا: كثيرا ما ينسب الصوفية أنفسهم إلى البر والزهادة والعبادة، رغم ما هم عليه من شرك وشطحات، وربما زندقة وإلحاد؛ بدعوى الحلول والاتحاد، ولعل هؤلاء هم المقصودين عند صاحب هذه الفضيحة الذهبية، فلام وسب شيخ الإسلام من أجلهم، وهذا ما يجعل الإمام الذهبي بريئا منها، لما عرف عنه من خلال كتبه من جهاد أمثال هؤلاء.

ثالثا: أما عن تسلط ابن تيمية على أحاديث الصحيحين فليس بصحيح، بل العكس هو الصحيح، فإن أهل الأهواء والبدع هم الذين عادوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، واعتقدوا عدم كفايتها وحجيتها، فما ثبت منها جعلوه ظنيا لا يفيد العلم لأنه آحاد في نظرهم، وضعفوا ما شاءوا مما صح عند أهل الاختصاص، بل كثيرا ما تسلطوا على صحيحي البخاري ومسلم – رحمهما الله تعالى -، وما لم يجدوا إلى تضعيفه سبيلا تسلطوا عليه بأنواع التأويلات والمجازات، وصنيع سليل الإلحاد والتعطيل حسن السقاف لا يخفى على أهل العلم، وهو ليس ببعيد.

رابعا: إن هذه الكلمات المنحولة على الذهبي؛ يرد عليها الذهبي نفسه، فيقول: (..فإن له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم فإنه بحر زخار، ولا كان متلاعبا بالدين، ولا ينفرد بمسائله بالتشهي، ولا يطلق لسانه بما اتفق، بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس، ويبرهن ويناظر أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فله أجر على أخطائه وأجران على إصابته..)، وقال: (..فإن كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بتفوقه، مقرون بنذور خطئه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له..).

وأما قوله: (أما آن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلى والله ما أذكر أنك تذكر الموت، بل تزدري بمن يذكر الموت؟)، وجوابه أن يقال: ابن تيمية يتوب ويستغفر الله تعالى في اليوم والليلة أكثر من مائة مرة؛ كما ثبت عنه، والتوبة مطلوبة من جميع الناس، أما عن عدم ذكره الموت وازدرائه بمن يذكر الموت؛ فمثل هذا الكلام لا يوجه لشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام الذهبي يعرف هذا حق المعرفة.

أما قوله: (فما أظنك تقبل على قولي ولا تصغي إلى وعظي، بل لك همة كبيرة في هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لي أذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول لك: والبتة سكت)، وجوابه أن يقال: بل هذه الفضيحة لا تستحق أن يرد عليها، ولولا كثرة الجهل والهوى، واستفحال الظلم، وقلة العلم والإيمان، ما رد عليها أحد، أما عن همة شيخ الإسلام في إحقاق الحق بالحق، والرد على الباطل بالحق فلا يطيقها أحد، وهذه منقبة وليست مذمة.

وأما قوله: (فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد فكيف يكون حالك عند أعدائك، وأعداؤك والله فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر)، وجوابه كالآتي:

أولا: سبحان الله كيف انقلب عند صاحب الفضيحة الذهبية الكاذب صادقا والصادق كاذبا، والفاجر صالحا والصالح فاجرا، والعدو وليا والولي عدوا، والعالم النشيط جاهلا بطالا، والجاهل البطال عالما نشيطا، فهل يقول محب مشفق لأمثال ابن القيم والذهبي وابن كثير؛ ونحوهم من العلماء الأتقياء، الذين ألفوا العشرات من المجلدات الطوال ذات الجودة والقيمة العالية؛ بأنهم (فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر)؟، وهل يقول محب مشفق عن أعداء حبيبه (صلحاء وعقلاء وفضلاء)، مع العلم أن أعداء ابن تيمية كانوا من أهل التصوف الباطل والرفض المحض والتجهم المطلق؛ ونحوهم من أهل الإلحاد والزندقة، أما خصومه من أهل الفقه وأصحاب المذاهب، فهو رحمه الله تعالى كان يرأف بهم ويتأول لهم ويعفو عنهم، رغم ما سعوا فيه من سجنه وأذيته باللسان واليد.

ثانيا: لا يهم حال ابن تيمية عند أعدائه ما دام على الحق، وهذا محض التوحيد في معاملة الخلق، وآراء الناس في الشخص لا ترقى أن تكون دليلا على حق أو باطل؛ وهي ليست بعلم، فإن العلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: لقد وصف أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية بأنهم (فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر)، وأصحاب ابن تيمية وتلاميذه هم المزي والذهبي وابن القيم وابن رجب وابن عبد الهادي وغيرهم ممن أقر بعلو قدرهم ونبوغهم في العلم والمعرفة والعبادة والزهادة الموافق والمخالف من مختلف طوائف الأمة، بل إن تراجمهم عند الإمام الذهبي نفسه لا تكاد تجد لها مثيل لغيرهم، فمن غير المعقول أن يقول عاقل يدري ما يقول عن أمثال هؤلاء مثل هذا الكلام، الذي إن خرج من في أحد فهو قدح فيه لا محالة.

وأما قوله: (قد رضيت منك بأن تسبني علانية وتنتفع بمقالتي سرا "رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي"، فإني كثير العيوب غزير الذنوب، والويل لي إن أنا لا أتوب، ووافضيحتي من علام الغيوب، ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على

سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين)، وجوابه كالآتي:

أولا: قال الإمام الذهبي عن شيخ الإسلام: ( وغالب حطه على الفضلاء والمتزهدة فبحق، وفي بعضه هو مجتهد، ومذهبه توسعة العذر للخلق، ولا يكفر أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه)، فشيخ الإسلام لم يكن يوما سبابا ولا لعانا، ( فلقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدّعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المرّ الذي أدّاه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكر، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمات الله).

ثانيا: يقال‏:‏ فلان ينصح لفلان، إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها، وفلان يغشه إذا أظهر إرادة الخير ولكن باطنه يريد السوء، كالنقود المغشوشة والأوراق المزورة، فظاهرها صحيح سليم وحقيقتها كذب وتزوير، وهذه الرسالة المسماة بالنصيحة الذهبية هي في حقيقتها طعن وذم وتقبيح لشيخ الإسلام ناصر السنة المحضة وقامع البدعة، ، وليس بينها وبين النصح أي رابط أو علاقة.

# تعليق عام

# إن شيخ الإسلام في تاريخه العلمي الجهادي لم يثبت عنه فحشا ولا تفحشا؛ لا في القول ولا في العمل، كيف وهو العالم التقي العابد الورع، ورغم ما رماه به خصومه، إلا أنه لم يتجن على أحد منهم، بل عاملهم معاملة الإخوان الذين يحبهم ويعتذر لهم ويصبر عليهم، وكان مشفقا عليهم، رحيما بهم، معتقدا أنهم لم يستوعبوا ما يقول، وإلا لما خالفوه.

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام وهو يرد على البكري: ( ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطابا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم، وأصل جهلهم شبهات عقلية، حصلت لرؤوسهم، في قصور من معرفة المنقول الصحيح، والمعقول الصريح الموافق له).

إن التكفير المطلق هو الحكم بالكفر على القول أو الفعل الذي يناقض الإسلام وعلى القائل أو الفاعل على سبيل الإطلاق ودون تعيين، وأما تكفير المعين فهو الحكم على القائل أو الفاعل بعد استيفاء شروط التكفير وانتفاء موانعه، ذلك أنه ليس كل من قال أو فعل بدعة أو كفرا يحكم عليه بالبدعة والضلال أو الكفر ويقال له مبتدع أو كافر، كما أنه ليس كل من خالف عقيدة السلف فهو مبتدع ضال أو كافر، بل يختلف إطلاق الحكم بالبدعة والضلال والكفر بحسب الأحوال والأشخاص، وليس الحكم على الأقوال والأفعال كالحكم على القائل الفاعل، بل ربما يكون القول أو الفعل كفرا مغلظا وصاحبه معذورا مغفورا له.

فبعد أن بين شيخ الإسلام أن الاعتقاد الذي ذكره في الإيمان هو المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأنه هو اعتقاد الفرقة الناجية لفظا ومعنى، ذكر أنه ليس كل من خالف في هذا الاعتقاد هالك، بل قد ينجو لأسباب اعتبرها الشارع وذلك من رحمته تعالى؛ منها الاجتهاد، وعدم بلوغ العلم، والحسنات الماحية، والتوبة، ومغفرة الله تعالى، ونحوها، فقال في المجموع:

( ثم قلت لهم: وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا، فإن المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك: فهذا أولى، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا وقد لا يكون ناجيا كما يقال من صمت نجا).

ومع وجود من يفهم هذا الكلام على غير مراد المتكلم، فيظن أنه يمنع من إطلاق اسم الكفر على من أطلقه عليه الله ورسوله، وهذا غلط على شيخ الإسلام، فإنه قال فيما بعد ما يزيل هذا الظن الفاسد: ( وهذا لا يعني أن لا نطلق اسم الكفر على من أطلقه عليه الله ورسوله، بل يجب ذلك)، ولكن بعد ثبوت شروط وانتفاء موانع، وذلك لمعرفته الراسخة في الشريعة.

وقال في مجموع الفتاوى: ( وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم -بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار- لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر، وهكذا الكلام في تكفير جميع المعينين، مع أن بعض هذه البدعة أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة)، فكيف يقال: إن شيخ الإسلام انتقص خصومه وتسلط عليهم باللعن والتكفير؟

وكمثال على سماحة شيخ الإسلام وسعة صدره وعظم حبه الخير للناس؛ ما قاله بعدما لقيه من الوشاية والسجن والتعذيب والتنكيل من أعدائه في مصر، في رسالة إلى أهله وأنصاره في دمشق يدعوهم إلى تأليف القلوب وجمع الكلمة وإصلاح ذات البين، ويحذرهم فيها من أذية من أذاه أو إهانتهم:

( وأول ما أبدأ به من هذا الأصل: ما يتعلق بي؛ فتعلمون -رضي الله عنكم- أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين -فضلا عن أصحابنا- بشيء أصلا لا باطنا ولا ظاهرا، ولا عندي عتب على أحد منهم، ولا لوم أصلا، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان كل بحسبه، ولا يخلو الرجل: إما أن يكون مجتهدا مصيبا أو مخطئا أو مذنبا؛ فالأول: مأجور مشكور، والثاني: مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له، والثالث: فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين، فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل، كقول القائل: فلان قصر، فلان ما عمل، فلان أوذي الشيخ بسببه، فلان كان سبب هذه القضية، فلان كان يتكلم في كيد فلان، ونحو هذه الكلمات التي فيها مذمة لبعض الأصحاب والإخوان، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ولا حول ولا قوة إلا بالله،...، فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم وإلا فحكم الله نافذ فيهم، فلو كان الرجل مشكورا على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سببا في هذه القضية لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة؛ لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم).

لقد أقر كل من يحترم عقله من العلماء والمفكرين والمتكلمين وحتى الفلاسفة؛ من الموافقين والمخالفين؛ قديما وحديثا، بعظمة شخصية شيخ الإسلام، ذلك العالم الرباني الفذ، أحد أذكياء العالم المعدودين؛ وشهدوا له بالتفوق في العلوم العقلية والنقلية، فكان له الأثر البالغ في الأمة، حتى إنه كل من رام إلى الطعن فيه وذمه ارتد ذمه وطعنه على صاحبه، واتهم في نيته وعقله، ونحن نجل إماما كالذهبي من أن يكون من هؤلاء الناس، ونعتقد أن هذه الفضيحة الذهبية؛ هي ذهبية بامتياز، ولكن في السلب لا في الإيجاب، فقد خطها من خان نفسه وأمته ودينه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52].

وإنا لنتعجب أشد العجب من أناس يدعون التحقيق والعرفان، لكن عندما يتعلق الأمر بشيخ الإسلام ومنهج أهل السنة والجماعة في أصول الدين؛ تجدهم لا يحكمهم علم ولا دليل، بل تحكمهم الأهواء والعصبية ونفوسهم المريضة، وتفعل فيهم الأفاعيل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 50].

فمثل هذه الفضيحة الذهبية، وأمتنا أمة العلم بالدراية والرواية، ونحن في عصر التحقيقات والتوثيقات، من المفروض أن لا تجد لها ذكر في محيط الدكاترة والعلماء؛ أو من يدعون التحقيق والتدقيق، ولكنهم لما كانت أحقادهم وأهواؤهم تعمي بصيرتهم؛ استدل بها من استدل، وسكت عنها من سكت، مع نقلهم لها في كتبهم ومنتدياتهم ومواقعهم؛ دون الإشارة إلى زيفها وضعفها، فلا أمانة علمية، ولا موضوعية، ولا حتى تقوى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اللهم هذا جهد المقل، فإن كان صوابا فلك الحمد والمنة والفضل، وإن كان فيه من خطأ فنرجو منك المغفرة والعفو، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله الطيبين وأصحابه الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



[تمهيد 3](#_Toc427068022)

[ماذا وراء النصيحة الذهبية 6](#_Toc427068023)

[خطة البحث 7](#_Toc427068024)

[ترجمة ابن تيمية عند الذهبي 8](#_Toc427068025)

[تعليق 18](#_Toc427068026)

[نص الرسالة الذهبية كما أورها زاهد الكوثري 21](#_Toc427068027)

[النقد الخارجي للرسالة الذهبية 25](#_Toc427068029)

[كلام السخاوي في حق شيخ الإسلام 28](#_Toc427068030)

[تعليق على قول السخاوي 29](#_Toc427068031)

[توجيه كلام الذهبي 31](#_Toc427068032)

[قول الشوكاني في السخاوي 33](#_Toc427068033)

[ملاحظة 35](#_Toc427068034)

[النقد الداخلي لمتن النصيحة الذهبية 36](#_Toc427068035)

[كلام أبي زهرة في اشتغال شيخ الإسلام بالفلسفة 44](#_Toc427068036)

[تعليق عام 51](#_Toc427068037)